استرجاع فقرةٌ من نفاق التاريخ

From the history of hypocrisy, Take back the paragraph.

د.رايس زواوي*

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس-الجزائر

تاريخ الارسال: 2017/06/22 تاريخ القبول:2018/04/17 تاريخ النشر: 2019/01/16

الملخّص.

لا تحتمل حرب الاستعادَة التي وُلِدت من قبل القوطيين والناڤاريين(**)، سوى أمراً واحداً، وهو تمكين الجهاز المؤسساتي للعذاب والعقاب من فرض قوته على كلّ الأراضي الإسبانية، بدأت باستعادة الشمال إلى الجنوب، فحرب الاستعادة قد أسَّست لمعنى البراكسيس، لكن في جانبه العنصري، وهو محو الإسلام من الأندلس خصوصاً واليهودية بالأخص.

الكلمات الدالة: نفاق المؤسسة؛ التاريخ والخطاب؛ الوسط الاجتماعي وفلسفة اللاتسامح؛ الآلة والكاثوليكية؛ السلطة وإنتاج النظام المعرفي.

Abstract.

The restoration war, which was declared by the koths and the Nagaring, has his own significance as an attemp to enable the institutional organisation of torment and punishment. The aim was to impose its force over all spanish territory.

It began first in the north than it moved towards the south. The establishment of such war was related to the meaning of the praxis in its discriminative perspective. That means to remove specialy Islam from Spain and Judaism in particular.

Keywords: Hypocrisy of institution, history and divcorirse, social milieu and philosophy of intolerance, power and production of the cognitive system.

مقدمة:

اعتبرت فكرة التعايش بين الديانات، حُلْماً وعلى نحوٍ غير متوافق، حيث انتهى ببطش الترسانة العدائية التي أسّست للكبرياء الكنسي لإسبانيا الكاثوليكية أثناء ازدياد العَداء لفكرة التعايُش التي قَبِلها الفكر الغربي خصوصاً بِتَزَلُّف، حتى يُحكِم عن طريق الغواية والإغراء اللذين مارسهما على الإسلام للفتك بالحضارة، في مقابل ضعف الدول والإمارات الإسلامية للموحدين أو حتى المرينيّين فيما بعد، وهكذا بدأ انحسار كل الممالك الإسلامية بدءً من الشمال إلى غاية الجنوب الشرقي والجنوب الغربي إلى أفول الإسلام منها حتى غاية 1609 كبداية لأكبر مجازر إنسانية مارستها الديمقراطية الإسبانية بحقّ شعبٍ حضاريّ أعزل، ولهذا نسعى في هذه الإشكالية إلى بيان استثمار السلطتين الزمنية والروحية

*- الباحث المرسل: Philo.devellop@gmail.com/ مختبر: الفكر الإسلامي في الجزائر

** - هي سلالة القلتا المنحدرة من أصل أسكندنافي والجرمانية التي استوطنت المناطق الشالية والوسطى. منهم الملك القوطي ويتيزيا (Witizia) أما Navara، مقاطعة في إسبانيا عاصمتها پمپلونا، مملكة قديمة تأسّست سنة 905، ثم اتحدت بأراغون 1076-1134، ثم تعاقبت عليها سلالات...

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

متمثلةً في الكاثوليكية للتاريخ الزمني من أجل الطرد النهائي لكل الديانات التي توطّنت في الأندلس، ومن هذا المنطلق كان نفاق التاريخ أكثر في أن اليهود لعبوا الدور الأكبر في صنع تاريخ إسبانيا الكاثوليكية بمساعدتهم على طرد المسلمين وتلفيقهم للتهم، وما حدث للمسلمين، حدثَ بالمثل لليهود بإخضاعهم للتفتيش والحرق والقتل وسبي لنسائهم، وبالتالي طردهم، وهذا كله بمعية نفاق التاريخ الذي غيّب أقواماً ورفع آخرين باستغلاله من قبل هؤلاء، لعل التاريخ الآن بدأ يعي دوره في أن يسترجع فقرةٌ مغيّبةً من الحقل المعرفي للعلوم الإنسانية باعترافه بالأخطاء التي أسهم في افتعالها ضد آخرين، معلمٌ آخر على هذا النفاق هو التنكُّر للقيم السمحة وللحضارة الإسلامية في إسبانيا الحداثة اليوم ومنه:

نعتقد انطلاقا من الحدث التاريخي المأساوي لإسبانيا الإسلامية/المسيحية أنّ فكرة الاندماج والتعايش والتفاعل لا يمكن ممارستها نظراً لأنّ:

1-النِفاق الذي سبق الترسانة الوحشية لمحاكم التفتيش أثناء ممارستها على نطاق أوسع وفضفاض، هو نفسه الذي مكّنها من أن تستثمر الدّين الكاثوليكي لتأسيس حداثة وهمية ترفض كل فكرٍ دخيل، إلاّ الذي أنتجته بمعية الإكليروس.

2-مصطلح الممارسة الأدّاتية لأشكال التعذيب المعنوي والعقاب الجسدي (النفسي/ الجسدي)، أتاحت للكنيسة أنّ فصل النفس عن الجسد أثناء التنكيل بها، هو لتنقية الروح من هذا الازدواج النفاقي، وهنا صارت المؤسسة وليدة المكان والزمان أي أنّ الفضاء الذي مورست فيه كل أنواع الاستئصال للحقيقة كان مُغْلَقاً، لكنه كان كافياً لانتزاع الحقيقة.

نتعرف أثناء هذا التمرير من معنى السكون إلى الحركية في إخضاع الجسد للقتل البطيء على معنى الخطاب الذي فرض ذاته على المؤسسة الإجرامية بتواطئه على فرض التهميش والتعسف، فنقرأ أنّ ازدواجية (الجسدي/ النفسي) كانت بداية لخلق الخوف أثناء ممارسة الخوف السبقي من تعرض المسلم إلى الامتناع إلى إتيان الفرائض والشعائر إلاّ سراً.

سواء وُفِقت المسيحية الكاثوليكية أم لم تُوفَّق، كان هذا الحدث الزمني سيتحقّق بدون إيزابيلا وفرديناند أم بغيرهما، لأنّ ما من حضارة إلاّ ويأتي عليها زمان وتنتهي، حتى يُسْمَح للمساحة بين الوجود والعدم أنّ تؤسِّس لحضارة تبقى هي كذلك محدّدة بفضاء وزمان محدّدَيْن، ومن هنا تبدأ نهاية حكم إسلامي وبداية حكم دموي.

2- من التعايش الوهمي إلى الوهم بالاندماج:

إذا قرأنا تاريخ الحربين العالميتين، نقرأ شهادةً تاريخيةً لمجازر في حق اليهود في ألمانيا وفي بقية الدول التي اجتاحها هتلر بترسانته الحربية، نُدْرِك أنّ هذا التاريخ، كان نفسه قد ارتضى أنْ يُسَوَّغ ليذكر ما حدثُ وما هو غير حدثٍ، فنسي أنّ نفس المجازر للحرب العالمية الثانية حدثت قبل أربعة قرون ونيف.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

تُعَدُ سنة 1492 ميلادية، بداية لمأساة إنسانية (الهولوكوست) اقترفتها أيدي الوحشية باسم المسيح عليه السلام، بحقّ شعب أعزل، سَمْحٌ ومُسالِم، لم يدرك يوماً بأنّ هذا المآل الذي وصلوا إليه، كان بِخَوْر المرينيين والمرابطين والموحِّدين، الذين فرضوا عليهم خطاب واحد، إما تسليم المدائن أو اجتياحهم، فقط لأنّ الأسطول الذي كنا دائماً نتباهى به على أنّه قويٌ، بات مُتهاوِياً، وهكذا جرى الحدث اللاتاريخي والمرئي في آنٍ، وهنا يبدأ تصدع العلوم الإنسانية التي أسَّسها فلاسفة الأندلس وعلمائها، وهذا شأنٌ آخر، سنعود إليه.

لم تشعر إسبانيا يوماً بعارها اتجاه حضارة قد أُبيدت، إلاّ مع المنتصف الثاني من القرن العشرين 1961، عندما، أعيد الاعتبار لتكريم مثوى الضريح عبد الرحمن الناصر الذي على أيامه تعايشت الأديان والملّل وكثُر الإنتاج الفكري والثقافي والطبي والفلسفي، إلاّ أنّ ما فُرِض قبل هذه الفترة كان سَيِّئًا، نظراً لتجارب حقلية لأدوات التعذيب والممارسات الخطابية الأكثر دمويّة في تاريخ إسبانيا المسيحية / المسلمة لقول شفيق أبو خليل:« **لقد قصدت إسبانية إبادة أمة أندلسية بعد مصرع غرناطة ، فوجّهت ضربة شديدة لرخائها وعظمتها، فخفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التفتيش، وخربت المدائن الكبيرة...**»[1]، حيث لم يُعر الإسبان الكاثوليك لقيمة ودور الاندماج إلاّ ما فهمه هو من هذا المصطلح من تهميش وتعدّي وفرض الوثنية والمسيحية على المسلمين الموريسكيين الذين أُجْبِروا عُنوةً على التنصُّر وترك دِينهم، وهذا هو معنى الاندماج في ثقافة إكليروس الكاثوليك، بفرض التغيُّر للتركيبة الاجتماعية على أساس ثقافة الواحد والفضاء الواحد، وهنا نحتفظ برأينا على أنّ الاندماج يتحقَّق بالتعايش لا بالعنصريّة، بالحقيقة لا بخطاب واحد..

إنّ فلسفة الهولوكوست قد تأسّست فقط على حقيقة الإنجيل، من خلال اعتبار كل الحقيقة الخفيّة هي التي تؤخذ بالقوة وعن طريق ديوان التفتيش، لهذا تعتقد الكنيسة أنّ فهم الجسد/ النفس من خلال: المرئي/ اللامرئي كافيان لردّ خطاب إسلامي إلى وضعه البدوي، والتسامي بخطاب تعنيفي إلى وضع أسُسٍ لمعنى الحضارة والإنسانية، فيكشف التاريخ عن أهم حلقة تواطأ في تزويرها، هو أنّه لم يُؤسِّس لحقيقة صريحة وعادلة من خلال تجريم الأفعال والمجازر بحقّ الموريسكي.

وبالتالي فإسبانيا مارست الحُكم بالقيم (Value's) على قيّم مخالفة لمعتقداتها لفرض النظام والاندماج بخلق تقنية الاستحداث (Innovation) في المجتمع الكاثوليكي أثناء اكتشاف الخيانة الإسبانية ممثلةً في التعذيب: «فبالحكم **بقيم-مغايرة-على حالت معيّنة، يؤذي إلى وضوح القيمة**»[2] لهذا كان رفض

[1]- أبو خليل شفيق، مصرع غرناطة: أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر-دمشق، ط2، 1981، ص 09.

[2]- أبو خليل شفيق، المرجع السابق، ص 08.

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

إسبانيا للموريسكي ولقيّمه، هو رفضٌ للتعددية، وللمجتمع الإسلامي، ليس لأنّ الاندماج غير مُتاح بالنسبة للموريسكي، بل لكون المنفعة القذرة هي الرمز الذي عيَّن معنى التواصل..

يمثل الاندماج حلقة مفقودة ومصطنعة من قبل الكنيسة وملوك إسبانية الكاثوليكية، لأنّ بدونه لا يمكن تلمُّس الحقيقة التي تُشكِّل هي كذلك القرب / البعد في تركيبة خطابية لفهم المؤسسة، حيث تعكس اللغة الإسبانية للموريسكي قمّة الحوار والتعايش والاندماج، لكن قراءة الماحدث خلال هذه الفترة لا يجعل اللغة تُعبِّر هي كذلك عن المايحدث، فاللغة مُقوِّم عاطفي معنوي ومادي، بها تُسيَّر سياسة دولة، فهي ركيزة لهذا الماحدث، لكنها ليست كلها تَحَكُماً في المايحدث آنذاك.

وهذا عكس ما كان ينظر إليه الأستاذ فارنند برودال(Fernand Braudel)من أنّ: «اللغة الإسبانية التي انتصرت على المغلوبين لتغمرهم، تعتبر هي الأخرى نجاحاً رائعاً للدمج الثقافي!»[1] لكن هذا الدمج كان من طرف واحد هو قبول الموريسكي الاندماج بشرط احترام الأقليات، وحرية العقيدة والتديُّن والعادات، وهذا قمّة الاندماج وليس محاكم التفتيش .

وبتسليم آخر معقل للمسلمين وهي غرناطة سنة 1492 من قبل أبو عبد الله الصغير إلى حكم النازية لمحاكم التفتيش بدأت للتوّ دواوينها بممارسة عملها لقول **الكاردينال ريثليو**:« **إنّها أشدُّ ما سجلت صحف الإنسانية جُرْأةً ووحشية** »[2]، حيث بيّنت الآثار العلمية لقراءة عدمية للتاريخ، أنّ هذه الفترة، جاءت بمثابة إعادة قراءة التاريخ الإنساني المؤسّس على العلاقات والمعاملات على أسُسٍ مغايّرة للتي عرفتها الأندلس إبان الحكم الإسلامي.

بدأ تاريخ الحتمية من الآن، كون ما وصلت إليه إسبانيا من حداثة وما بعد الحداثة، كان مؤقتاً ضمن تعسف الآلة الوحشية التي تعاملت مع الحدث الإنساني، باللاحدث التاريخي، فمن هنا بالضبط يُعاد التفكير في مركزية المؤسسة، وداخل أنواع مختلفة من السباب والشتم مثل ما حدث لـ: **" أنا دوفيغاروا"** (Ana De Figuaroa) من أنّها " كلبة عربية "، في وقاحةٍ للإنسان المسيحي الإسباني، الذي كان يتحدث بالمكبوت العدائي للمسلمين العرب خصوصاً، الذي كان بمثابة كبش الفداء لأنّ الموريسكي كان متمرداً على معنى الاندماج الرمزي، فإسبانيا الكاثوليكية حدّدت عملية التواصل الرمزي بين المُرسَل والمُرسَل إليه أثناء قبولها بإلزام المارانوس أو حتى المواركي بقواعد قاهرة لإنتاج معنى المعيار (Standards) الذي يفرض على هؤلاء الامتثال لنماذج (Model's) اجتماعية قاهرة وآمرة (Imperious).

بعد فشل كل الأدوات والطرق التي اتبعتها الكنيسة الكاثوليكية الإسبانية لخلق انحراف الموريسكيين عن دّينهم الإسلامي وبتراجعهم عن عقيدتهم، بإخضاعهم للتحقيق والقتل والحرق والطرد ومصادرة

1- المرجع نفسه، ص 85.

2- المرجع السابق، ص 99.

ISSN: 2253 – 0592 /الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

الأموال والأملاك، كخطة الأرض المحروقة، قصدت من كلّ هذا، هو تحقير الموريسكي المسلم وخلق إمكانية اندماجه في المجتمع الإسباني- المسيحي من منظورها الخاص، لا زالت لم تتوان عن اعتماد الاندماج كسياسة قويمة أملتها سياسة الدولة لفيليب الثاني بدءً من سنة 1571 انطلاقاً من ثلاث مناطق هي: أراغون وبلنسية وكاتالونيا اتجاه الموريسكيين بجملةٍ من الإجراءات والتدابير لتنصير المسلمين منها:

-تدمير المساجد لإقامة الصلوات مع الحفاظ دائماً على المسيحية، لكن بداية يكون هذا التصرّف شكلياً حتى يتم الاندماج.

-تأسيس مدارس مختلطة للأطفال من المجتمعين...وغيرها من القرارات والتدابير لردّ المسلم الموريسكي عن دّينه. وهكذا تمارس المؤسسة بعد فشلها في انتزاع حقيقة الموريسكي اتجاه المجتمع المسيحي، أسلوب الاندماج داخل مؤسسة التنصير لكن هذه المرّة، قد سمَحت لنفسها بأن تمارس هذا الأسلوب على المدى الطويل، وهذه منقصةٌ في حق الاندماج وطعناً للتعايش والحوار وحرية التديُّن.

وبطريقة ماكرة مارست المسيحية أسلوب التهميش واللاتعايش أثناء دعوتها إلى الاندماج والتفاعل، وهي تُبيّت أساليب الطرد إلى ضواحي المدينة لعزل الموريسكي عن الأحياء الفاخرة للمسيحيين بخلاف الأحياء المكتظة بالسكان، وهذا أسلوب هو كذلك ظاهره اندماجي وباطنه هو ممارسة أكثر للتعسف المرئي / اللامرئي(Visible and Invisible) حيث محاكم التقتيل، قد أعلنت في إجراء ذكيّ وماكر على إسقاط الحقوق المدنية، من خلال منع هؤلاء الموريسكيين من التشبُّه بالأشراف(صَفاء الدم) كلبس الحرير، والذهب والفضة... وغيرها من الإجراءات التعسفية لعزلهم عن المؤسسة الشرفية لإسبانيا وللمجتمع المسيحي الكاثوليكي، اعتقاداً منهم أنّ تغذية الفكر المسيحي الإسباني الذي تفاعل مع الموريسكيين بهذه التفاهات الإستشراقية، تجعل النفور اتجاه المسلم عاملاً مساعداً على حتفهم، ليؤسِّسوا معنى التصنيف والترتيب على أساس عقائدي عنصري خاطئ غرضهم هو احتواء الفجوة إلى الصفر، ولا يُترك للموريسكيين من خيار سوى القبول بخطاب دموي وعنصري.

3- في البدء كان الفضاء:

يشاء الموريسكي أن يكون صريحاً ، ظنّاً منه أنّه على الحقيقة، لكن هذا المُكوّن السلوكي هو نتيجة لفعل مُمارس أثناء الاعتقاد إلى حدّ الوثوق به كمكوّن عاطفي (أي المحبة / الكراهية)، فهي محبة لأنّها تنزع إلى إيمانها وإلى رفضها أن تُقذَف وتُشتَم في عقيدتها وفي رسولها محمد عليه السلام وفي هويتها، وفي مقابل ذلك كراهية ازدادت إزاء تعسف وتعدّي الأساقفة ورجال الدّين المسيحيين الإسبان أثناء التعامل السيئ مع عقيدتين مختلفتين، حيث أضحى المكوّن العاطفي مَلْمحٌ على التنبؤ بسلوك الشخص أثناء إتيانه الفعل أو ممارسته للعمل.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

أمّا المُكوّن السلوكي يبقى متأثرا بالفعل من خلال تمثُّل العمل حياتياً، ما يُبيِّن أنّ الثبات بين السلوك والعاطفة هو ثبات نِسْبي، مُؤَسَّس على دور الأسرة والعادات والتقاليد التي تُلقَّن للنشء، ما يجعل منه صورة على شاكلة أصله الاجتماعي، وهنا تظهر الحتمية بقوّة أسرياً، واجتماعياً لأنّها تحكم الفعل الاجتماعي والذي هو فعل إنساني الذي سيكون المآل (the device) الذي يحضره المستمتع من الجمهور، والمتعاطف من الناس، والمشاجب للأفعال العقابية التي يُشاع بها على مرأى من الكل، والأهم من ذلك نحن نعيش مسرحاً في الهواء الطلق(*)، مجاناً لِمَن حضر الشهادة، لكنه في الآن نفسه عليه أن يدفع الإتاوات (tax disc) إذا سوَّلَت له نفسه أن يخرج عن الانضباط الإكراهي .

من هنا، بدأ التفكير بجعل للفضاء قُدسيّة للمصارحة أثناء الاعتراف بالذنب بحقّ المسيحي-الإسباني لا بشيء، إلاّ لأنّه مسلم-موريسكي، أراد أن يُمارس هويته وشعائره الدّينية، في مجتمع أسس لحداثة لم يسأل نفسه يوماً من أين له بها؟

لقد مارَس رجل الدّين لمعنى <u>الفضاء المفتوح/ المرئي والفضاء المغْلَق</u> تحت <u>الدهاليز/ المرئي</u> كذلك، هدفه، هو محو أمّة بكاملها، ساعده في ذلك تاريخه الآلة (الجهاز) فلم يُنتِج الفضاء إلاّ التباغض والتعفن الاجتماعي، لأنّ إثارة الشفقة كانت لسوء العلاقات الاجتماعية بين الموريسكيين والجار بالجَنَب من المسيحيين.

4- العلاقات الاجتماعية:

ببَدْءْ محاكم التفتيش عملها، صارت علاقات الأسر والأفراد على المحك، فازدادت المكوِّنات العاطفية والسلوكية ترسيخاً في ممارسة التنافر والتباعد، نتيجة أنّ تأسيس التحقيق لم يكن من أجل حفظ السلام والانضباط، بل من أجل انتزاع الحقيقة، فازدادت العلاقات الاجتماعية سوءاً جرّاء الوشايات(*) التي مارسها التفتيش قسراً على الموريسكيين مقابل ضمان القدسيّة، حدث هذا، لأنّ انتزاع القداسّة عن الفضاء (Désacralisation) بات ضرورياً أمام الشفقة (Pathetic) اتجاه العلم والدّين.

في مواطن كثيرة، كانت الوشاية هي صاحبة انتزاع الحقيقة، لأنّ حسن النيّة التي كان يتبادلها الموريسكي مع جاره المسيحي، لم تكن متفاعلة في علاقات اجتماعية، ومتبادلة بحيث أنّ الاحترام لم يكن متكافئاً

(*) - لقد كتب أحد مفتشي التحقيق إلى أسقفية كوانكا (Cuenca)(**) يوم أنْ شهِدَ الواقعة من أنّ سيدة تدعى (لويزا هارنداز) قد صاحت أثناء وجودها بقرية "طيناجاس" (Tinayas)(***) أنّ العربي أفضل من المسيحي، حيث أقْتيدَت إلى السجن، بعد مصادرة كل أملاكها، من أنّ إنزال العقاب بها بالقرية يكون درساً لها ولغيرها في نفس المكان الذي وقعت فيه الجريمة، وهنا نتحدث عن بداية التفتيش من خلال الفضاء المفتوح ، حيث هذا الآخير ليس كما يتصوره العلماء الفيزيائيون والفلاسفة، بل لأنّ به أبعاداً محدّدة مرئياً وعلى مسمع من الناس.

(*) - في مقابل رضى الكنيسة، يسمح المسيحي-الإسباني بأنْ يُقتادَ الموريسكي بعد الوشاية وهم على مائدة الطعام إلى محاكم التحقيق لأنّه: «رفض **أن يأكل البيض مَقْلي بشحم الخنزير**».

أنظر: لوي كاردياك، <u>الموريسكيّون الأندلسيون والمسيحيّون: المجابهة الجدلية 1492-1640</u>، تعريب: عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية-تونس، 1983، ص 25.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

بين الطرفين، فالأول الموريسكي كان مخلصاً بقَدَر والثاني المسيحي كان مُباغتاً بحيث يعقِدُ على عزيمة جاره ويوشي به في الآن نفسه مُتحَجِجاً بالصداقة.

لقد أسست الوشاية لحضارة دموية إسبانية في عهد الموريسكيين لأكثر من قرنين، حيث العلاقات الاجتماعية هي نَكِرة وغير مُؤَمَّنٌ عليها، فقط لكونها كانت من طرف واحد وهو الموريسكي.

سنتلافى الجانب التاريخي الخاص بدولة الموحدين والمرابطين والحفصيين الذين أسّسوا للدولة الحديثة في الأندلس، غرضنا هو الوقوف على تحليل الخطاب الأداتي لمحاكم التفتيش أركيولوجياً، طبعاً بتتبع أشواط التاريخ العلمي والفلسفي للمؤسسة الدّينية والفكرية آنذاك، ببيان ما مدّى مساهمة المؤسسة الدّينية في استئصال شأفة الإسلام من الأندلس؟ وتحيّيد المركزية للعلوم الإنسانية والاجتماعية أثناء تبني العنصرية والتعسّف بحقّ أمة مسالمة؟

هناك توافق بين تقلص مماليك الأندلس إلى حدود غرناطة جنوباً وانحسارها إلى غاية الحدود البحرية على تخوم المغرب الأقصى وبين تراجع المدّ الإسلامي في التحكُم في بنيته الفوقية (السلطة) بسبب التكالب المسيحي لاستئصال معنى التاريخ الإسلامي، والناتج عن تطاحن الأمراء سواء في الخارج في تشكيل المثلث التاريخي من الزيانيين (الجزائر)، الحفصيين (تونس) والمرينيين (المغرب الأقصى)، فانتهى هذا الشرّ إلى استتباب المرينيين لما بعد موحدي الأندلس بعد غلبتهم على محو الحفصيين والزيانيين، وبين الداخل الذي حدَّد الدور الفعّال والمؤقت للمرينيين لِما عُرِف بالأندلس ما بعد الموحدين، حيث شكّل (الداخل/ الخارج) ثنية في إنتاجه لمعنى الخطاب المعرفي والتاريخي[*] وأنت تقف على التراكمات في المنظومة المعرفية التي كانت نِتاج الغدر وعدم الوفاء لمعنى التعايش والتفاعل حتى في المواثيق التي أعلنت من الطرفين، انتهى بها الأمر إلى النفاق، فتأسّست المملكة الإسبانية التي سوف تكون سليلة الحداثة الإسبانية عندما مارست أبشع المعاملات، لأنّها لم تعِ قط معنى التعايش والتفاعل والاندماج، فلم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت (Prescott) أن يصف هذا المكر والنفاق في المواثيق: « **بأنّها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور**»[1]، فبدأت هذه المأساة تُعبّر عن نفسها أولاً:

[*]- بدأ سقوط مدن الأندلس تحت ضربات إسبانيا الكاثوليكية بدءً من الشمال من طرف فرديناند الثالث ملك سراقسطة أثناء انهزام إبن هود سنة 1231م باسترجاع كلٌّ من مدينتي: ماردة وبطليوس، كما سقطت أبْدَة بعد ذلك بثلاثة سنوات 1234. كما عجّلت الصراعات الداخلية بين ابن الأحمر وابن هود في غرناطة إلى سقوط قرطبة في جوان سنة 1236، انتهت بوفاة ابن هود سنة 1237 غَدْراً. وتعاقبت الهزائم الواحدة تلو الأخرى، انتهت بسقوط بلنسية على يدّ جايم ملك الأراغون (Aragon) ونهاية حكم الموحّدين بالتدريج، سيكون مآله النهاية، ليستولي المرينيون على الأندلس لما بعد الموحّدين، وبسقوط بلنسية سنة 1238م تفككت دولة الموحّدين وانتهاء حكم ابن هود. ولقد حكم ابن الأحمر غرناطة لمدة كانت له فيها الغلبة، سرعان ما دخل في طاعة فرديناند الثالث ومن بعده ابنه ألفونسو العاشر، شاركهم في الغزو على المدن الإسلامية مُقدّماً لهم المعلومات والفرسان المسلمين لاجتياح باقي الجزيرة الإيبيرية، وهذا يُعد بمثابة موالاة الترسانة الكاثوليكية خوفاً على نفسه وعشيرته ونسَبه، مقدماً المدائن بمن فيها ضحية لإسبانيا، وهكذا توالت الهزائم والأمجاد، حتى انتهى عهد غرناطة ومحوٍ كل أثرٍ للوجود الإسلامي.

[1]- أبو خليل شفيق، المرجع السابق، ص 100.

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

5- أزمة العلوم الإنسانية والاجتماعية:

لقد بدأت هذه الأزمة، حين وطّن الإسبان مملكة غرناطة، أثناء تدنيس الشروط أولاً بأول إلى غاية إتلاف ثمانين ألف كتاب، بدأ العمل المأساوي على تراث إنساني-عالمي وليس فقط إسلامي من قبل رئيس الأساقفة / خمينيز/، ظنّاً منه إنهاء آثار الإسلام والمسلمين من الأندلس.

ووفقاً لسلطة البابا ممثّلةً في فرديناند، تمّ إقصاء السّلط المسيحية الأخرى بما فيها البروتستانت، حيث ممارسة السلطة الدّينية، فتح مجالاً شاسعاً لمعايشة العلوم الإنسانية والاجتماعية مأساةً عالمية وبشرية انتهت إلى صراع بين السلطة الزمنية التي لم تبدأ بعد، والتي ظهرت لاحقاً ضمن احتواء للسلطة الدّينية لها، ما مكّن هذه الأخيرة محو معنى الديمقراطية والتعايش والتكيُّف/ إعادة التكيُّف(Adaptation - readaptation) وفقا لحتمية صارمة، هي في أساسها دّينية، بدأها اتحاد دولتي قشتالة لـ:(إيزابيلا) وسراقسطة لـ:(فرديناند) عام 1479 فتأسست أراقون وأكملها رجال الإكليروس والأساقفة حتى ظنا أنّ ثبات المكونين العاطفي والسلوكي هو أحسن مُقوّم يُمكِن أن يُعدِّل أو يجعل من الموريسكيين يتراجعون عن مكوّنهم المعرفي (التراث الإسلامي بالأخص واليهودي بالخصوص). إذن، هي مأساة تراث، وأزمة علوم انعكست سلبياً في حدوث فجوة من بداية الطرد إلى غاية 1808 فترة غزو نابليون إسبانيا...

بعد فتح غرناطة وقبل غزو نابليون لإسبانيا، أُحرِقَت كُتبٌ عربية عديدة في كل التخصصات ومنها التي تؤسِّس للعقيدة الإسلامية، ومنه أنّ محاكم التفتيش باشرت أعمالها العنصرية بإصدار قانون 1565 الذي كان ينصّ على أنّ: « **كل الكتب وكل الكتابات بالأحرف العربية وجبَ تقديمها إلى رئيس محكمة غرناطة قبل ثلاثين يوماً، وإذا امتنعوا فسوف يُعاقَبون بأداء مقدار 20.000 مارُ افيديس (Marovedis)...**» [1] ، وإذا تم العثور على هذه المخطوطات يُعاقَب مالكوها إما بالسوط أو بمصادرة الأملاك ، لكن مع ذلك، لم تستطع محاكم التفتيش انتزاع ما قُرِأ وحُفِظَ في الذهن، لكنها بأسلوب ماكر انتزعت كل هذه العلوم بقوة الضغط والتنكيل والتجويع والتهميش.

لقد شكّلت عملية المصادرة للتراث الإسلامي-الموريسكي، الشغل الشاغل انتهى بهذه الأعمال إلى حرقها، وبهذا أعْلِنَت إسبانيا-المسيحية أزمة العلوم الإنسانية والاجتماعية، لأنّها لم تقبل إلاّ بأمرٍ واحد، هو محو كل فكر آتٍ من الموريسكيين ومنَ شاكلهم من تراثهم... ما يبيّن لنا أنّهم امتازوا بصفتين أساسيتين هما:

-طابع العداء اتجاه المسلم-الموريسكي وما يتعلق بتراثه عموماً.

[1]- بشتاوي عادل سعيد، الأندلسيون المواركة، مطابع أنترنا شيونال برس-القاهرة، ط1، 1983، ص 16.

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

-خاصية الرجعية التي كان يعيشها الإسباني-الكاثوليكي بالخصوص، وهذا قد تمّ عن وعيٍ منهم لجهلهم بالعلوم، لأنّهم لم يحاولوا أن يستفيدوا من هذا التراث العالمي لكونه ليس فقط إسلاميا، كما كانوا يظنون، فتعترف محاكمهم بأنّ كُتب الموريسكيين كتبت باللغة العربية واللغة القشتالية وهذا معْلَمٌ على احترام العرب المسلمين للقراءة والكتابة والعلوم.

-استمرت المطاردة للغة العربية أقصى الإسراع في تشريع المراسيم البابوية والملكية بحقّ إقصاء اللغة العربية، ومنع حتى الجانب التواصلي بها، وأشهر هذا العَداء الوحشي، إقدام الكادرينال خمينيز دي ثيسنيروس (Jimenz Decisneros) عام 1500: «إذ **أقدم حلى حرق الكتب الإسلامية في الساحة العامة وبلغ عدد مجلداتها آنذاك خمسة آلاف (...) وكذلك فعلت محاكم التفتيش بمقاطعة أراغون التي أقدمت على حرق آلاف المصاحف ومختلف الكتب الأخرى**» [1].

الشكل الأوّل: يشير إلى تفكيك خطاب العلوم الاجتماعية والإنسانية ببداية عمليات الحرق للكتب الفلسفية والعلمية الإسلامية بالأخص، وهذا تطاول على الإرث العالمي في إسبانيا.

المصدر: www.quran-m.com/firas/ar_photo/120799405 pic2.jpg

6- مؤسسة الهولوكوست:

ما جرى للمسلمين في الأندلس من نبز بالألقاب هو أمارةٌ على بداية الاضطهاد المعنوي لخلق العنصرية جرّاء تحكيم معنى الأصل أو الدّم، والذي كان سياسة خبيثة لم يراع فيها الإسبان المنجزات التي حقّقها الفاتحون المسلمون في شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث طغى الإقصاء والتعسُّف واللااندماج الاجتماعي على سلوكيات الكاثوليك، خلق هذا ردباً(Dead End) يصعُب الخروج منه، انتهى بالإبادة بكل أشكالها.

1- المصدر السابق، ص 17.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

لقد مارست الترسانة الكاثوليكية للسلطة الكنسية على مجالٍ أوسع، قصد إبادة عرق بشري كامل أثناء عملية تطهيرية لم يشهدها التاريخ إلاّ مع فرديناند وإيزابيلا بمباركة الكنيسة، معتقدين أنّ التوبة من الخطأ تكون بممارسة فعل الاعتراف أثناء مزاوجة التعذيب بالاستجواب أنّه ينطبق على كل الديانات، متناسيةً أنّ الموريسكي لا يعتقد في الاعتراف، كونه لم يرتكب خطأً يُحاسَب عليه أساس تنقية النفس من الكذب واللاحقيقة.

تعد سنة 1478 بداية مباركة مرسوم بابوي لتشكيل محاكم التحقيق على مدى أوسع لاستئصال الشرّ (في اعتقادهم، ولتطهير المدائن الإسبانية من حُكْمٍ امتد أكثر من ثمانية قرون ونيف، لهذا أصبِغَت عملية الإبادة بمرسوم كنسي يُجيز معنى التطهير في عموميته لمكيافلي بشرط الوصول إلى تحقيق الغايات، فأعْطِي لمعنى التطهير معنىً دينيّ هو خلق فعل الإقرار بالذنب على أساس بيولوجي، فكانت ممارسة الآلة للتعذيب (torture) أكثر وقْعاً نظراً للألم الذي يُنتِجُه التعدِي، ليستكمل هذا الإجراء المعنوي بالعقاب.

لقد وصفت لنا المراسيم الإسبانية عملية التحقيق، لحالة المعذّب (الكائن الإنساني) وهو تحت التعذيب بأبشع الوسائل، التي مارست هي كذلك سلطة تخويفية تنضاف إلى الخوف من العقاب، حيث:« **يُملأُ البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهر، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه مُعلَقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تُربَط معه...**» [1]، حيث لم تجتهد الآلة الكاثوليكية إلاّ في اختراع كيفية تدوين القضية لصالح المؤسسة العقابية أثناء ممارسة الموت على المعذّب والانتقال تاريخياً بهذا الكائن من معنى الإنسان إلى معنى كائن من الكائنات...

لقد اكتسبت الآلة العقابية معنى الشرعية الكنسية التي مارستها على معنى الأخلاق البيولوجية في خطاب واحد ومُتحيّز، هو خلق فهمٌ خاص للانتقال والمجاوزة في خطاب السلطة الدّينية، كون أنّ المؤسسة الإسبانية لم تَعِ معنى التفريق بين السلطتين الدّينية والزمنية أثناء توظيفها لإيديولوجيا قذرة، فتوافقت السلطتان على كتابة تاريخ جديد هو إسبانيا الحداثة التي تأسست على المجازر في حق الإنسانية...

لقد بلغت الكنيسة الكاثوليكية من خلال ترسانتها مرتبة أعلى في دروس الديمقراطية والحداثة، وهي تمارس تشويقاً وتمتعاً بالتعذيب لما بعد إسبانيا الكاثوليكية فجاء: «طرد **الإسبان الغرناطيين، بعد معركة من أكبر انتفاضات التاريخ من أجل الهوية، فإنّ المقصود كان مشكلة ولاء سياسي بقدر ما كان عملية مواجهة بين الحضارات**» [2]. فمن هذه اللحظة المرئية والمفتوحة على الجمهور لمشاهدة

1- أبو خليل شفيق، المرجع السابق، ص 99.
2- المرجع نفسه، ص 107.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

أكبر مسرح على الهواء الطلق، تُقام حفلات استمتاع لذمّ المذْنِب واقتياده على مرأى من الناس إلى حتفه وهو يُحدِّث نفسه في لحظةٍ زمنيةٍ يكون فيها حُرّاً، لأنّه قد أدى مهامه الشرفية بعدم الخيانة لدينه وإنسانيته...

لم تتعلم الكنيسة الكاثوليكية من هذه الدروس، ولم تعترف بخطئها أمام التاريخ ولصالح التاريخ، ربّما لأنّه هو كذلك قد حُكِم من قبل اللاتاريخ عندما قضي على حضارةٍ تشهد على المجاوزة السلبية لإسبانيا:« **وقرار المحكمة لا يتم إلاّ عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حَرْقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع المِلكِيْن الكاثوليكيين حفلات الإحراق**»[1] فالمؤسسة الوحيدة التي تمارِس الموت على هذا الكائن هي مؤسسة الكنيسة، ولم يشهد التاريخ على إنتاج مؤسسة بديلة لها، أو حتى شبه مرافعة، إلاّ مع احتلال نابليون لإسبانيا سنة 1808.

فلا قرار المحلفين (verdict's) ولا قرار القضاة ولا استنفار الرأي العام، لأنّ هذه الأدوات لم تُخلَق بعد، لأنّ التاريخ سيبدأ في كتابة ذاته للتوّ. وأنت تقرأ للوهلة الأولى كلمة "تفتيش"، تعي أنّها خُلِقت للتعذيب المعنوي وهو أشد من المقصلة، لأنّه موتٌ بطيء وساخر من معنى الإنسانية، وفي معنى الانتقال من المؤسسة إلى ممارسة هذه المؤسسة لشروط التنفيذ الإلهي (تفويض للإكليروس) تجد أنّها مرادفة لمعنى الجهاز، لأنّ أدوات الديمقراطية والاعتراف بالحقيقة، غير حاضرة، ولم تُنتَج بعد، لأنّ الآلة هي الجهاز وليست المؤسسة التي تمارس التعذيب والعقاب، فالمؤسسة هي إستراتيجية وهي مرئية، متمثلةً في الكنيسة، أما الجهاز فهو التنفيذ، أحدهما يُشرّع وثانيهما يُنفِّذ...

لقد ورد عن المُعذَّب صموئيل فرناندس وهو تحت آلة التنكيل، أنّه لم يحِد عن دينه ومعتقده إلاّ لأنه عُذِّب وهذا بلسانه، لا بقلبِه، حيث يُجاري ديوان التفتيش على قضيته العادلة ولا يعترف لهم، لأنّه ليس مُذنِباً بل مُعذّباً، حيث المقابلة الثنائية بين رئيس التحقيق والمُعذَّب، تتخذ شكل الاستجواب لانتزاع حقيقة تبغيها المحكمة الدّينية، ثمّ يأمر رئيس المحكمة أثناء انقطاعه هنيهة عن مساءلته من الجلاّد الذي هو بدوره يمارس سلطة الاستنطاق بحركة السوط فيضرِبه على وجهه حتى يتورَّم وجهه احمراراً، وهكذا يمارِس الجلاّد وهو يرتدي كساءاً أسود لسلطتين هما:

-سلطة اللباس الذي يضعه بالخصوص على وجهه.

- سلطة جَلْده على وجهه، حيث المسافة بين ممارسة الجَلْد وضربه، هي لسلطة أداة الضرب وهكذا لم يبق أمام المُعذَّب سوى مقاربته أن يموت، فيعلمنا معنى الصمود في سبيل الحقّ والدفاع عن المعتقد وعن الإنسانية.

[1]- المرجع السابق، ص 108.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

لقد تفنّن الجلاّد في ممارسة التعذيب بإيعاز من الكنيسة بأنّ الذي يخضع للحرق يوضع قماشٌ أصفر يكسو جسمه كما حدث لـ: بياتريس هارنناز(*)، وتشتد العلاقات المسيحية/ الإسلامية سوءاً خصوصاً قُبَيْل وأثناء عملية الطرد إلى المجابهات العقائدية بين الديانتين، حيث الكراهية والحقد والتنافر وِفقاً للمؤلف: لوي كاردياك في كتابه المترجم إلى العربية: الموريسكيّون الأندلسيّون والمسيحيّون، هي صاحبة الموقف، وهي أحد أعمدة حجاج ديوان التحقيق، بحيث أنّ سمتي التعدُّد والتنوع العقائدي والطقوس والعادات والأعراف، وكل ما يخص الديانتين هي غير محترمة وبثقة جريئة وعنصرية، يُصرًّ المسيحيون آنذاك أنّ انحدار الموريسكيين من إسماعيل اللقيط (الابن غير الشرعي)، لإبراهيم عليه السلام هو دافعهم لإبادة شعب مسلم أوجد لهم حداثة هم عليها الآن.. [1]، وليس لها موقِع من تعايش الحضارات. لقد اتخذت الكنيسة ممثلةً في الأحبار والقساوسة كل هذه الممارسات الموريسكيّة على أنّها تنقيصٌ للمسيحية، لهذا الأمر أُسّست **محاكم القتل** لإبادة شعب بأكمله، ومن خلال هذا نلمس أنّ فكرة التعايش والاندماج لدى الفكر المسيحي هي نكرة حتى الآن، لقد أرادت محاكم التفتيش من خلال ممارستها البشعة إلى فرض: «الصرامة **التي أعلنتها الكنيسة والدولة لاحترام وحدتها الدّينية، والتي تعتبرركيزة المجتمع الإسباني**»[2].

7- مغالبة خطاب المكربالمكر:

بتسليم غرناطة إلى إسبانيا الكاثوليكية فقط دون البروتستانت، تم معاقدة جملة من القرارات في وثيقةٍ أصلية بين الطرفين الإسلامي والمسيحي منها:

-احترام حرية التديّن.

-الإبقاء على المآذن والصوامع.

-عدم التعرض إلى أملاك مَن بقي في إسبانيا إلى المصادرة وأخذها عُنوةً.

-معاملة المسيحيين الأندلسيين كباقي المسيحيين الإسبان.

لكن سوء سريرة الكاثوليك، سرعان ما بدأت عملية التفتيش والتعميد والطرد بأشكالٍ مختلفة، ما أظهر أنّ الكاثوليك كانوا يضْمِرون الحقد والكراهية، بل والمكر أثناء اقتياد الموريسكي أو معاملته على أنّه عبد (Agaria)، وفعلياً بدأت المجادلة في محاكمهم بين مكر مُبيَّت وبين مَكْرٍ ذَكي للاحتفاظ بالمعتقد وبالإسلام. وهنا، أخذت العلاقة اللامرئية (الصمت) والمرئية (التحقيق) غير المتساوية في انعطاف جذري نحو أسلوب المهادنة لاتقاء مزيدٍ من الضغط والقتل.

---

*- سنة 1615 هي خضوع نفس الضحيّة للحرق أثناء كساء جسمها بقماش أصفر، وهذا يدل على فظاعة المؤسسة الإجرامية التي مارست العنف والقتل بأنواعه كعملية الاستمتاع بتنطيق كل عضو من الجسم على حدي أثناء ممارسة السوط على العضو، منه ضرب الجهاز التناسلي بقضيب أحمر منْعاً للتناسل والإنجاب.

1- أبو خليل شفيق،_المرجع السابق، ص 212.

2- المرجع نفسه، ص 212.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

باتت كل الأساليب التي مارسها المِلكان على المنتصرين(الاحتياط) ومن مؤسساتهم بأنّها جدّ متهافتة، قد خاطبت جسماً ميّتاً، جسماً مسالماً، وليس جسماً طيّعاً، لأنّ ما فُرِض عُنوةً، كان لا بدّ من التغلب عليه بالصمت أحياناً وبالمجادلة أحياناً أخرى:« **و انطلاقاً من اللحظة التي تلقى فيها الموريسكيون التعميد بالقوة، فإنّ المجتمع الذي شكّلوه سوف يتحوّل إلى جمعية ذات طابع شبه سري ، وقد استمر الفقهاء في ممارسة وظائفهم سراً** » [1] ،حيث هذه الجمعية التي لو سُمح لها أن تتحدث بإسم المغلوبين على أمرهم لكانت بمثابة مجتمع مدني، وفعلياً دور هذه الجمعية كان للتنسيق بين المسلمين في الأندلس للمطالبة بأحقيتهم في المواطنة والجنسية من خلال تأسيس أول كتلة للمجتمع المدني في إسبانيا المسيحية، وعلى مرّ التاريخ من بداية التفتيش، كانت مسيحية المِلكَين ماكرة ومنافقة إلى حدّ الجرأة على نقض الميثاق بينهم وبين تسليم غرناطة، فجاء في وثيقة على لسان المؤرخ الإسباني لوي دومارمول كارفاجال (Louis de Marmol Carvajel) أنّ الداخلين حديثاً (في الدّين المسيحي) كانوا دؤماً يشعرون بالحقد اتجاه ديننا، إذ يعترف بأنّ دينهم (نسبة إلى المسيحية المزورة لمحاكم التفتيش) أنّها خدعت هؤلاء، بنقضها للمعاهدة الثنائية،ا فقَوبِل المكر بمكرٍ آخر، هو التزام الصمت حيناً، والمجادلة التي فيها لغة صريحة وثقة بالنفس على الالتزام بالعقد[2]، حيث كتب للورانت (llorente):« **أنّ محاكم دواوين التفتيش قد حافظت بل قوّت مكرها، عندما عاقبت فقط الأشخاص الذين لا يعرفون المكر** » [3].

8- من الفراغ إلى الفراغ:

يأخذ مفهوم المكر الممارس من قِبل محاكم التفتيش كأداة هي الأخرى بمثابة سلطة إكراه، نتجت عن وجود فراغ في التظاهر بأداء الواجب الاجتماعي من طرف الموريسكي اتجاه المسيحية الكاثوليكية، هو نفس الفراغ الذي قوبِل بفراغ ماكر من الموريسكي غير الفطن والذي لم يُحسِن معنى المكر لمجابهة خبث محاكم التفتيش، ليغدو هذا المكر هو كذلك أداة لانتزاع حقيقة الاعتراف الموجِبة للتعميد والتمسح حتى يُسمَح للموريسكي الاندماج.

ووِفْقاً للتكدسات التاريخية، عملية الطرد والتعميد والحرق والتعذيب جاءت بمثابة أساليب لموقف سياسي اتجاه الباقين من الموريسكيين في الأندلس. لذا، معنى التسامح الاجتماعي والدّيني... كان غائباً على الموقف المسيحي، لهذا أنتج مفهوم الفراغ معنى الاقتلاع والغرس.

-الأول: عنصري.

---

[1]- الأندلسيون المواركة، المرجع السابق، ص 217.

[2]- إيرفنغ واشنطن، أخبار سقوط غرناطة، تر: هاني يحي نصري، مؤسسة الانتشار العربي-بيروت، ط1، 2000، ص 303.

[3]- جعيط هشام، أوروبا والإسلام، صدام الثقافة والحداثة، دار الطليعة-بيروت، ط2، 2001، ص 16.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

-الثاني: استبدال وانتقال من حالة إلى حالة اجتماعية سياسية. فيؤكد الفراغ: « **أنّ تقرير المصير ليس مفهوماً مجرداً في عالم الحقوق، و إنما هو دليل تاريخي يوجه المجتمع ويُحدِّد الجماعات التي تقبل أن تتلاحم على هدي المبدأ القومي** »[1] فكانت كل الأساليب السلطوية والتعسفية بحق الموريسكي هي تبني حقيقة واحدة ومطلقة هي في الكاثوليكية، ما أمكن من استيعاب كمٌ هائل من المعرفة التاريخية والاجتماعية ، فمن هذا الفراغ كانت " التقية " هي: « **طريقة قانونية للعمل** »[2]، لصدِّ خبث ومكر محاكم التحقيق بمكر مماثل له لتجنب عداء الكنيسة ولو مؤقتاً، وللمحافظة على المعتقد الإسلامي أمام ترسانة الآلة، حيث يُبرِّر الأستاذ عبد الجليل التميمي ذلك بارتباطه بوضعية الضعف التي كانوا عليها جرّاء سياسة التعسف والتعدّي، التي مورست على أسلوب التقية.

نعتقد أنّ مؤسسة محاكم التحقيق، كانت جهازاً استثنائياً كونه سمح لنفسه بتطبيق ما كان يراه ملائماً، أثناء فرض المسيحية بطريقة قاهرة وآمرة: «وديوانهم **هو من المتعجرف والاختلاس واللواط والفجور والشتيمة والجحود والغروروالتكبروالاستبداد والسرقة والظلم**»[3]، بحق المدنيين العُزّل، فلم تترك محاكم التفتيش أي وسيلة للتعذيب إلاّ وجربتها في حقلٍ للاختبار، فقدمت الموريسكي تجربةً للحكم على مصداقية الآلة التعذيبية وللحفاظ على المؤسسة الكاثوليكية، طبعاً بالتخويف ومصادرة الأرواح والممتلكات. لهذا وصلت إسبانيا المسيحية إلى إنتاج معنى المؤسسة وهي بمثابة المرئي (Visible) في مقابل المرئي من المؤسسة والمتمثلة في الجهاز، فكانت أدواتها أكثر وحشية من مثيلاتها الرومانية، وهكذا قوَّض فيليب بمشاركة إيزابيلا قرطبة رمز التعايش والسلام بين الديانات: الإسلام، المسيحية واليهودية، حيث نبَعَت سياسته من عدائه اتجاه كل الدّيانات بما فيها سلطة البابا، فهو لا يختلف عن فرانكو[*] إلاّ في حسن ممارسة الآلة، لهذا تُعتبَر محاكم التفتيش رمزاً للتعصب والوحشية، فمن أجل الوحدة الكاثوليكية، مارس فيليب كل أشكال التعصب والتعذيب وتفنن انطلاقاً من مؤسساته الملكية في انتزاع معنى الحس المدني، الذي نعتقد أنّه بدأ يتشكل من هذه اللحظة، لكن ليس كلياً...

كانت سلطة فيليب تحدياً للبروتستانت في كلّ أوربا عموماً، وإسبانيا – الحداثية-خصوصاً فيما كان يُعرَف بالتمركز حول العرق[**]، حيث بلغت المؤسسة معنى توظيف الجدانوقيا، في ممارسة الكنيسة

---

[1]- حادي عبد الله، الموريسكيُّن ومحاكم التفتيش في الأندلس، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب-الجزائر، نوفمبر 1989، ص 43.

[2]- المرجع نفسه، ص 49.

[3]- رزوق محمّد، الأندلسيّون وهجلاتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 – 17 م، لإفريقيا الشرق دار البيضاء-المغرب، ط3، 1998، ص 120.

[*] – هو فرانسيسكو فرانكو (1892-1975) رجل جيش الإسباني بعد موت الجنرال خوسي سانجرجو (José Sanjurjo) ثم عيّن رئيساً للبلاد سنة 1938 فمارس الحكم الكلي الشمولي.

[**] – هي نزعة استعراقية، يعتبر دعاتها أن عرقهم فوق الأعراق الأخرى، لهذا وظفت هذه الجماعة العنصرية كل أشكال التعذيب بحق الجسد بتزكية رُهبان الجزويت، الذين هم بأنفسهم خُوِّل لهم من قبل القانون الملكي الكاثوليكي ممارسة التعذيب والعقاب (punishment) ممثلة في القس أغناطيوس لايولا (Ignatius Loyala) (1491-1556) وقد ساهمت هذه الجمعية الدينية العنصرية في القضاء على المسلمين في الأندلس من خلال محاكم التفتيش، فاتخذت إلى خلق كل سُبُل البر والخير المقدمة للشعوب الفقيرة والضعيفة مسلكاً سياسياً ودينياً، هدفه هو محو كل الديانات ونشر ديانة نصرانية اليسوع، وخلال سنة 1808 أصدر نابليون أثناء احتلاله إسبانيا مرسوماً يقضي

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

ممثلة في رهبانها معنى التعذيب النفسي المعنوي من خلال المراقبة التي فرضت على الموريسكيين.. أي المراقبة المستمرة لطريقة الأكل واللباس والمعاملات والحياة اليومية للمجتمع الموريسكي في تعامله مع المعتقد المسيحي، إلى حدّ ذهاب المؤرخ أزنار كاردونا (Aznar Cardona) بوصف طريقة الموريسكيين في الأوّل بالهمجية والبشعة والحقيرة، وهو وصفٌ ينِمُّ عن حقدٍ متنامي اتجاه الدخلاء من الموريسكيين، الذي يُعبِّر عن وجود ذاتية تابعة للمعتقد والكنيسة ولتأريخ الكاثوليكية.

تعتبر سنة 1502 منعطفاً تاريخياً خُبِّر فيها المسلمون بين اعتناق المسيحية أو النفي أو مغادرة إسبانيا وهو صدور مرسوم 12 فبراير 1502 الذي جاء بمثابة خطاب تعسفي بحق المسلم الذي اعتنق المسيحية أي **المدجنون** قبل صدور مرسوم 1502.

وقبل هذه الفترة بقليل، أي في أكتوبر 1483، صدر حكم التفتيش بمرسوم بابوي، وعُيّن القس توماس دي تركيمادا (Thomas De Torkimada) محققاً عاماً لها، بوضعه دستوراً يُؤسِّس لهذه المحاكم الجديدة وعدداً من اللوائح والقرارات تُجيز عملية التخيير والارتداد أو الطرد والتهميش جاء به الخبير في التاريخ الأندلسي مانويل باريوس أغليرا، بدافع حماية المسيحية، أثناءها عملت الكنيسة على تجسيد عملية التحقيق بأساليب متنوعة كلها لخدمة المملكة الكاثوليكية في الداخل منها:

- ينال المرتدون عن الدّين المسيحي من الموريسكيين عقاباً بالحرق إلى الموت.

-تختص السلطة المدنية بممارسة العقوبات الجزائية على المرتدين منها محكمة كوانكا ومحكمة لوقرونو (Logrono)، حيث بلغ عدد الذين أحرِقوا سنة 1559، 33 موريسكياً، وإلى غاية 1563 كان هذا العدد هو الأعلى من نوعه في هذه السنة بالمقارنة مع السنوات الأربع التي تلت سنة 1559.

وهكذا تم تصنيف العقوبات على المسلمين في الأندلس بموجب عملية الإحصاء (consus) بدءً من تسليم غرناطة، لتبلغ الآلة العقابية درجة من النضج البابوي المسيطر على عملية استدراج المذنب وِفقاً لعمليات الترتيب والتصنيف العقابي بحسب درجة الجريمة سواء ما تعلق منها بالشنق أو الحرق أو العقاب إلى غاية الموت، لتؤسس محاكم التفتيش مهمّة تقسيم الوظائف العقابية إلى السلطة المدنية (power civil) أو العدالة، حيث الإعدام هو خارج عن نطاق محاكم التحقيق التي تختص بعملية استنطاق المذنب وانتزاع اعترافه.

تشكل السلطة المدنية أهم سلطة إستراتيجية لكونها تمارس الموت علناً، وبالرغم من كونها بلغت درجة معينة في إطار توثيق الوعي وخصوصاً مؤسسات المجتمع السياسي (الدولة الجزئية) والمتمثلة في السلطة المدنية التي خوّلت لنفسها عمليات القتل والجزاء والمنع والحرق والشنق بمباركة رهبانية من

بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، إلاّ أنّ رهبان الجزويت استمروا في عملية القتل حتى على الجنود الفرنسيين، مما استلزم من القائد العسكري الفرنسي الكولونيل ليمونكي مع ألف جندي وأربعة مدافع، لإنهاء دير الديوان الكاثوليكي، فيصفها المؤلف بأنّها بمثابة دهاليز ممتدة تحت الأرض.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

محاكم التفتيش حيث المجتمع السياسي (الدولة الجزئية) ≠ المجتمع المدني بمؤسساته الحقوقية بحسب ما نصّت عليه معاهدة تسليم الأندلس إلى الكاثوليكية الإسبانية.

تُعد وظيفة الآلة العقابية هي ممارسة أكثر منها للتخويف، لأنّ هذا الأخير هو مخطط لإشعار– المُذنِب- بأنّه لا شيء أمام آلة الاعتراف. فإسبانيا الحداثة أو عصر التنوير كان نتاج الآلة العقابية مع مؤسِّس الحصول على الاعتراف هو توماس دي تور كيمادة (Thomas de Torquemada) الذي ينحدر من أصل يهودي، ولكي يُبعِد عن نفسه هذه الشبهة قام بقتل اليهود المتنصرين وغيرهم أو حتى مصادرة أملاكهم، وإلى المحقق الأكبر في مملكة أراغون نيكولاس إيميرك هذان الرجلان اللذان أحسنا استنطاق – المُذنِب- من خلال وضعه: «**في غرفةٍ مظلمة تُذكِّرُ بالموت ومصدر الضوء الوحيد كان من شمعة على طاولة تَخْلُق حولها عدد من عمال المحكمة. وإذا مَثَل المتهم أمام المحققين، قرأ الموظف عليه لائحة الاتهام والمحققون ير اقبون بصمت عبر عينين تطلان من ثقبي عطاء الرأس. في البداية، كان المحقق الأكبر، الذي يجلِس على كُرسيّ منفصل قُبالة الطاولة، يتصنع الاهتمام بأوراق بين يديه ولكنه يضع الأوراق جانباً بعد فترة...**»[1]، بالإمكان أن يكون الانعكاس الضوئي ميكانيزم آخر لتخويف المتهم إلى حدّ استئصال هويته المتنازع عليها من قبل المحققين، أما وقد أشرنا دائماً في كتاباتنا لهذه الدراسة بأنّ المُعذَّب هو المذنب بخلاف أنه المتهم كما جاء في ص 217 من نفس الكتاب هذا، فلأنّه بِنظر هؤلاء هو المُذْنب، كونه احتمل مسؤولية تبعة أفعاله الشرعية والعقلانية اجتماعياً.

يبدو أنّ نفاق التاريخ، قد تحقّق أكثر بتوقيع معاهدة السلام، الذي بدا: «**سلامُ الغالب المرتقب للحظة الثأر**» [2]، وبالتالي بناء تخطيط إجمالي للانقضاء على المغلوب كان دّينيًا أكثر منه وطنيًا، لتحقيق الوحدّة الروحية-الدّينيّة، وبدافع المُكوِّن العاطفي (الكراهية) تفنّنت الآلة العقابية في محوِ عنصر بشري بأكمله من الأندلس-الإسبانية.

خلال سنوات 1492- 1609 عرفت إسبانيا عدّة محاولات لاسترجاع الأرض من قبل الموريسكيين، انتهت عمليات المقاومة التاريخية لمعنى فرض خطاب النديّة، والتي سيق فيها قائد الموريسكين توريخي بيثنتي (Vicente Turiji) إلى حتفه كرسالة على نهاية مقاومة السلطة الأندلسية، ولهذا عّدّت سنة 1609 بمثابة نهاية عصر الأندلس بارتكاب مجزرة كان عدد قتلاها 3000 ثلاثة آلاف من المقاومين وبلغ بالعنف درجة عالية من الممارسات اليومية لمحاكم التحقيق وزبانيتها(البابوات ورجال الدّين) من سلوكات تعنيفية أُسِّست على محوِّ جنس بشري بأكمله، رُعِي في كلِّ هذا استغلال الدّين المسيحي من قدسيّته (الابن، الإله، الروح القدس) حتى يُطبع العنف اتجاه المُتميِّز الذي له شكلان:

---

1 - Claude Mouchot, Introduction aux sciences sociales et à leurs méthodes, pul, Paris, 2éme edition 1990, p. 147.

2- José Maria Perceval, Tous sont un : Archétypes, Xénophobie et racisme, l'image du morisque dans le Monarchie Espagnole aux XVIe et XVIIe siècles, dirigée par : Monsieur Bernard Vincent, 22 mars 1993, p.01.

ISSN: 2253 – 0592 /الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

-مُتميّز، لأنّه الأقل صفاءا في الدم في نظر المسيحية ومحاكم التحقيق.
-لأنّه فعليّا استطاع أن يُحدث تغييراً في مفهوم السلطة بإنتاجه لدلالة المقاومة.

إنّ إخفاق سياسة التعايش الموريسكي/ المسيحي، كان نتيجة عملية المكر التي انتهجتها محاكم التفتيش جرّاء إشراط الاندماج/ بالتنصير وهذه السياسة برهنت على فشلها أمام المآل الذي كان من الجهتين الموريسكي والمسيحي. لهذا كانت تقنية الطرد، المنفى. هي مؤسسات عن طريقها مارست إسبانيا المسيحية التعذيب المعنوي، هي معطيات مورست بهدف اكتمال الحقيقة الكاثوليكية، وهي تعبيرٌ عن أقصى معاني الآلام الذي لحق بالموريسكي في قمّة التراجيديا الإنسانية.

وبالتالي يصبح للضوء تأثير مُنوّم، جرّاء رفضه الامتثال للاعتراف، حيث للضوء تأثيرٌ نفسي – يجعل المذنب -ما إنْ يتصور لهذه الأداة حتى يبدأ في ممارسة العذاب على نفسه من خلال أن الآلة جعلته يتكيّف مع هذا الميكانيزم نفسياً وهنا يدخل المُذنب في عملية أولى وهي خوفه من الضوء زائد خوفه على هويته من التقهقر والرجوع إلى الصفر لأنّها صارت مُلْكاً للجلاّد والمحقّق والأكثر للمرئي غير المادي وهو **الضوء**.

خاتمة.

يتحدّد خطاب المؤسّسة الكاثوليكية بالرجوع إلى فهم العملية التفكيكية للممارسات العملية لخطاب واحد، هو اللاتسامح والظاهر في فعل الإقصّاء وفرض الاندماج الكنسي- الإثني على عمليات الطرد التي مسّت اليهود عمومًا، والمسلمين خصوصًا لسنة 1492 – 1609، وتواصل فعل إنشاء المؤسّسة القضائية والعقابية والجزائية بإنشاء مؤسسات الحرق الجماعي والقتل والإرهاب الجسدي / النفسي لغايةٍ واحدة هو أنّ إسبانيا للكاثوليكيين، تلك هي المصلحة القذرة والمُتصفة بالنفاق الدّيني / المسيحي لرجال الإكليروس / البابوية بتشريعٍ ملكي لإيزابيلا وفرديناند وتواصل عمل هذه المؤسّسة مع خمينيز و توماس توركيمادة...

إنّ صناعة التاريخ لا يتشكّل إلاّ من داخل هذه المؤسّسات العقابية والتي لم تُنشئ يوماً إنسانًا متكاملاً، إلاّ الذي كان من الآلة، فبات التحوُّل من إنسان إلى كائن بوسيط هو الجلاّد، إذن، نحن أُحبُولة التاريخ ونفاقه المتواصل، فلا تعلم الحداثة الإسبانية من أين لها هذا الإرث الحداثي، وتناست عِظَم الجرائم (محاكم التفتيش) حيث الفعل / وردّ الفعل هو بتواطئٍ جُرْم التاريخ.

الملاحق

الشكل (2): وقوف المذنب في الدهاليزلمحاكم التفتيش لمحاكمته من قبل المؤسسة

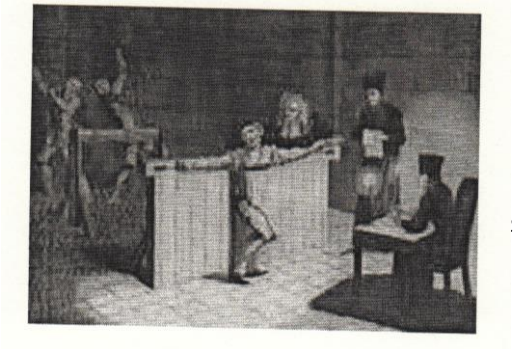

المصدر:

islamstory.com/sites/default/files/images/stories/articles/1103/20234_image002.jpg

الشكل (3): المذنب أمام براعة الجلاّد والآلة العقابية

المصدر:

www.quran-m.com/userfiles/image/inquisitions-torture-tools.jpg

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)